الفصل الثالث

البعد الحركي للدلالة
والتعريف في البراديم كولن

"الإسلام ليس بحاجة إلى قلمنا، مهما بلغ قلمنا من البلاغة؛ ولكنَّ قلمنا بحاجة إلى الإسلام، إلى ما ينطوي عليه من ثروة روحية وأخلاقية... قلمنا بحاجة إلى القرآن الرائع الذي بوسعنا أن نتعلَّم منه الكثير".

(سلهب، بتصرف)

obeikandl.com

obeikandl.com

البعد الحركي للدلالة والتعريف في "البراديم كولن"

مدخل

تكتسي التعاريف عند فتح كولن حُلَّة خاصَّة، ذات ألوان زاهية بديعة، مختلفةٍ عن أيِّ شكلٍ من أشكال التعريف التقليدية: القاموسية، والاصطلاحية، والفلسفية، والمعرفية... الخ.

ولا يمكن القفز على إشارة علي جولاق الصادقة، في تقديمه لكتاب "ونحن نقيم صرح الروح"، حيث قال: "أزعم -أنا الضعيف- أنَّ الحاجة ماسَّة إلى قاموس بمعاني المفردات التي يستخدمها [الأستاذ فتح الله]، ومن يمحِّص آثاره بحثا وتدقيقا، عن دراية باللسان التركيِّ، سيجد تصرُّفات ذاتيةً، ومفردات ثريةً، في أسلوبه. وأزعم أنَّ هذا القاموس يدلُّنا على المستندات والعناصر الأساسية لخزينة الأستاذ الثقافية، وعالمه الفكريِّ"(ص٩).

وأنا أزعم -على إثر هذه الملاحظة، وعلى قصَر معرفتي بالأستاذ، ومع جهلي باللغة التركية، وكوني قارئا نهماً لنتاج الأستاذ بالعربية- أنَّ مثل هذا القاموس يتجاوز في دلالته خزينة الأستاذ الثقافية وعالمه الفكريِّ، إلى خزينة "البراديم كولن" وعالمها الرحب، الذي يسهم في فهم حياة الألفاظ في فكر الأستاذ، وفاعلية المعنى في نسقه الفكري، ويساعد على إدراك

مدى قدرة هذه الدلالات على السفر من عالم الفكر الممنهج إلى عالم الفعل المنظَّم.

وفي مثل هذه الملاحظة التي أدافع عنها يقول أديب الدباغ: "وأفكار كولن كيانات حية تنبض بالحياة؛ لأنَّها بعض نفسه، وبعضٌ من فلذات روحه وقلبه، زقَّها[1] حبَّاتِ الروح، وسقاها دم القلب، قبل أن تنضج وتستوي وتأخذ طريقها إلى عقول القرَّاء وقلوبهم"(ترانيم روح، ص٦).

ولو اقتصرنا على الدلالة التقليدية للتعريف أو الحدِّ، لقلنا إنه: "الوصف المحيط بموصوفه، المميِّز له عن غيره"؛ ولو عددنا الشروط الكلاسيكية المنطقية للتعريف، لقلنا إنه ينبغي أن يكون جامعا مانعا؛ أي "جامعا لمحدوداته ومصاديقه، مانعا من دخول غيره". لكنَّنا سوف نتجاوز هذا التقليد، ونعتبره ولا نلغيه.

ثم إنَّ مالك بن نبي في محاولته لتعريف الثقافة، عقد عنوانا صغيرا سماه "عملية التعريف"، ومما قال فيه: "فهناك إذن عمليةُ تعريف تبدأ عندما يطلق الاسم على الشيء، وتنمو كلَّما أخذ الشيء معنى مركَّبا، أي أنه بعد أن يصبح اسما يصبح فكرة، ثمَّ مفهوما"(مشكلة الثقافة، ص٢٢-٢٣)؛ وينبِّه ابن نبي إلى أنَّ المرحلة المتأخِّرة، أي مرحلة المفاهيم، تكون مترابطة متشابكة معقَّدة، ولا تقتصر على الدلالة الاصطلاحية التخصصية فقط.

ولو اعتبرنا هذه العملية بهذا الترتيب (الاسم، فالفكرة، فالمفهوم)، لقرَّرنا أنَّ الألفاظ والمصطلحات عند كولن لا تسكن ولا تخمد عند دلالة واحدة، وإنما تنمو وتتطوَّر، وتولَد وتكبر وترشُد، وتحتكُّ بمختلف العلوم والمعارف، وتلج أغوار القلب لتتمرَّغ في عالم الروح والوجدان، ثم

١ زق الطائر فرخه: أطعمه بمنقاره.

obeikandl.com

تصَّاعد إلى فضاء العقل لِتكتسي الصفاء والمنطق والمعقولية... ثم تتنزَّل إلى أرض الواقع تختبره ويختبرها... وتعيد الكرَّة تلو الكرَّة مسافرةً بين القلب والعقل والواقع، فَتِيلُها مغروس في زيت القرآن والسنَّة الشريفة، لا تنحرف عنهما قيد أنلمة، وهواؤها ممزوج بالتجارب البشرية الغابرة والحالية، وأفقها ممتدٌّ إلى سماء المستقبل والبصيرة والفراسة الصادقة... فتغدو هذه الألفاظ وتلكم المصطلحات بعد عملية التعريف "كيانات حية نابضة بالحياة"، تهب الحركية والتمكين بفضل الخالق الوهَّاب.

ولقد تتبَّعتُ تعريفات كولن في العديد من كتاباته،[1] فألفيتها ذات منطق متناغم، ثمَّ إني اهتديت إلى نصٍّ يشرح خصائص هذه التعريفات بدقَّة عالية، يقول فيه:

"إنني لم أرَ للتقوى في غير القرآن الكريم هذا المعنى الشامل، وهذا العمق والسعة، كما أنني لم أطَّلع على كلمة ساحرة كهذه الكلمة خارج نظام الإسلام الأخلاقي والتربوي، وبهذا المستوى الذي يضم المادة والمعنى معًا، حتى إنَّ جذوره موغلة في الدنيا، وأعضاءه وأزهاره وثمراته منتشرة في العقبى"(التلال الزمردية، التقوى، ص٨٥).

ولعلَّ أبرز خصائص التعريف عند كولن -من خلال هذا النصِّ وغيره- تتمثل في النقاط الآتية:

١. **الشمولية**: فكولن يحمل نفسه على الشمولية في كلِّ تعريف يقتحمه، مدرِكا خطورة التجزيء والاختزال، مديرا ظهره لضيق التخصُّصات، والمذاهب، والمدارس. ومثل هذه السمة لا تتأتَّى إلاَّ لعقل موسوعيٍّ لا

---

١ انظر مثلا: أسئلة العصر المحيرة، تعريفا رائعا للإلفة، بعنوان: "ما الإلفة؟ وما تأثيراتها السلبية"، ص٥٤. وانظر: تعريف "التصريف وتطبيقاته الحركية"، في كتاب"الجرة المكسورة" -بالتركية- وقد دونت ترجمة للمقال أملاها عليَّ الأخوان جمال وأجير، في الأكاديميا.

obeikandi.com

يعرف معنى الحدود، فالرجل فقيه، وأديب، ومؤرِّخ، وفيلسوف...

٢. **العمق والسعة**: يجتهد كولن في النهوض بالتعريف إلى مُرتقى العمق والسعة، بعيدا عن ضيق الأفق، زمنيا أو مكانيا.

٣. **النظام الإسلامي الأخلاقي التربوي**: تندرج تعاريف كولن ضمن منظومة ونظام، ولا تشذُّ عنهما، ولقد انحرف باحثون غرَّدوا خارج السرب، وحاكموا التراث لمنظومات ونظم منطلقة من رؤى كونية متعارضة مع الرؤية الكونية الإسلامية شكلا ومضمونا.

١. **المادة والمعنى**: إنَّ تعريفات كولن راشدة رشيدة، تصل بين المادة والمعنى، ولا تُحدث انفصاما بينهما، فالمادَّة تمثِّل الواقع، والمتزمِّن، والحركيَّ...، والمعنى عنوانٌ على العلم، والنظر، والمتجاوِز... وينبغي أن لا يغطِّي العلمُ على العمل، وأن لا يطغى العمل على العلم، مهما كانت المبرِّرات والدوافع. وأحسب أنَّ المحاورة التي جرت بين حسن حنفي وأبي يعرب المرزوقي، في كتاب "العلم والنظر"، والتي دافع الواحد فيها عن النظر وأولويته، ودافع الآخر عن العمل وأسبقيته، أحسبها محاورة عقيمة، فمثل هذا التناغم الذي امتاز به كولن في فكره وفعله هو المرجوُّ، وهو الحلُّ والمخرج لأمَّة المصطفى اليوم، ولملَّة الإسلام في هذا الزمان.

٢. الجذور الموغلة في الدنيا، والأعضاء والأزهار، والثمرات المنتشرة في العقبى: إنَّ جذور الألفاظ ودلالاتها لا توصف بأنها دنيوية محضة، ولا أخروية محضة... لكنَّ الجذور يجب أن تستمدَّ حياتها وكينونتها من الدنيا، ومن الحقيقة البشرية المتزمِّنة، ومن عالَم الأسباب المحسوسة المحسوبة؛ حتى لا تكون تحليقا في الأحلام والماورئيات؛ أمَّا الغاية

والعقبى من تلك الألفاظ ودلالاتها، فيجب أن تكون في الله، ولله، وبالله، ومن الله، ومع الله... لغرض الآخرة والباقيات الصالحات، لا لغيرها.

ولقد نرسم هذه الفلسفة العميقة في الدلالة عند كولن بالرسم الفني التوضيحيِّ الآتي، بكلِّ أبعاده، وأعماقه، ومظاهره، وجمالياته...:

نماذج من تعريفات كولن

بهذا المنطق وبهذه الفلسفة في الدلالة كثرت المصطلحات التي نحت لها كولن تعريفات فريدة، وللتمثيل نورد ثلاثة مصطلحات هي "الورع"، و"المراقبة"، و"الدعاء":

١- الورع:

يقول فتح الله في تعريف الورع، بعدما أورد تعريفا من القاموس، وتعريفات من معجم التصوُّف: "ويمكن أن نعرِّف الورع بأنه وقف الحياة والسلوك على ما يلزم في الآخرة وينتهي إليها، ومن ثم التحرُّك وفق إدراك حقيقة الفانيات الزائلات"(التلال الزمردية، ص٩١).

obeikandl.com

فصفات الشمولية والعمق والسعة، في هذا التعريف، متحقِّقة من خلال عرضه لمعالم الوجود كلِّها: "الحياة" و"السلوك"، و"الآخرة" و"الدنيا الفانية الزائلة"، و"التحرك" و"الإدراك"...

أمَّا الجذور فضاربة في الدنيا من خلال "الحياة" و"السلوك" و"التحرك"... وأمَّا العقبى فموصولة بـ"الآخرة"، و"النهاية"، و"الغاية"...

وكلُّ هذه الحقائق منتظمة تحت نسق ونظام إسلامي تربوي أخلاقي، معتبرا للإدراك وسيلة للمعرفة، وللسلوك تصديقا لتلك المعارف، وللحركية المستمرَّة والفكر المستمرِّ عنوانا لهذا النظام، يقول كولن في مقال له في هذا الشأن: "يمكن تلخيص كفاحنا كورثة للأرض بكلمتي الحركية والفكر. وإنَّ وجودنا بوجهه الحقيقيّ يمرُّ عبر الحركية والفكر... حركية وفكر يغيِّران الذات والآخرين"(ونحن نقيم صرح الروح، ص٥٧).

ولقد اصطدم، عبر التراث الإسلامي، مدلولان للورع: أحدهما انعزاليٌّ، جزئيٌّ، نمطيٌّ لا يسهم في البناء الحضاري بشيء؛ والثاني حركيٌّ، شموليٌّ، إبداعيٌّ، هو أصل الحضارة وأسُّها؛ ولعلَّ المثال البارز في ذلك، سبب نزول قوله تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى قُلْ إِصْلاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ﴾(البقرة:٢٢٠) فقد ذكر صاحب "لباب النقول" أنه: "أخرج أبو داود والنسائي والحاكم وغيرهم عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: لما نزلت ﴿وَلا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾(الأنعام:١٥٢)، ونزلت ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا﴾(النساء:١٠)، انطلق مَن كان عنده يتيم فعزل طعامه عن طعامه، وشرابه عن شرابه، فجعل يفصل له شيئاً من طعامه فيحبسه له حتى يأكله أو يفسُد، فاشتدَّ ذلك عليهم، فذكروا ذلك لرسول الله ﷺ فأنزل الله ﷻ ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى﴾.

ومعنى كلام ابن عباس رضي الله عنهما: أنه لما نزلت الآيات التي تحذِّر من أكل مال اليتيم والتعرُّض لماله بغير التي هي أحسن، أثَّرت هذه الآيات في نفوس الصحابة رضي الله عنهم، فأيُّ شخص من الصحابة كان عنده يتيم انطلق فعزل طعامه عن طعامه، وشرابه عن شرابه؛ حذراً من هذه الآية، فأنزل الله عز وجل هذه الآية: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى قُلْ إِصْلاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ﴾(البقرة:٢٢٠).

وهذا معلوم حتى من ناحية التربية، فلو كان عندي يتيم في البيت فعزلت له طعامه بعيداً عن طعام الأهل والعيال فهذا يؤثر عليه تأثيراً سلبياً؛ ولذلك أرشدنا الله عز وجل إلى مخالطتهم فقال: ﴿وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ﴾ وبيَّن ربُّنا أنَّ الأعمال بالنيات فقال: ﴿وَاللهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ﴾ أي: أنَّ الله يعلم مَن الذي يريد أن يأكل مال اليتيم ومن الذي لا يريد ذلك" (عبد الحي يوسف، لباب النقول في أسباب النزول؛ نسخة رقمية).

ولقد عمَد الصحابة الكرام ﷺ إلى الترك والعزل، احتياطا وورعا؛ فأوضح الله تعالى لهم أنَّ الإتيان والمخالطة من تمام الورع، بل هو ذروة الورع؛ ذلك أنَّ الفساد بيِّن والصلاح بيِّن، والله تعالى أعلم بالمفسد وبالمصلح. فتعريف كولن للورع كان من قبيل هذا المعنى الشمولي، الذي يجعل الورع حركة وحياة، لا سكونا وموتا.

وعن مثل هذا الاصطدام بين دلالتي الورع، روى البخاري وغيره، قال "جاء ثلاث رهط إلى بيوت أزواج النبي ﷺ، يسألون عن عبادة النبي ﷺ، فلما أخبروا كأنهم تقالوها، فقالوا: أين نحن من النبي ﷺ؟ قد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخَّر، قال أحدهم: أمَّا أنا فإني أصلي الليل أبدا، وقال آخر: أنا أصوم الدهر ولا أفطر، وقال آخر: أنا أعتزل النساء فلا

أتزوج أبدا، فجاء رسول الله ﷺ فقال: أنتم الذين قلتم كذا وكذا؟ أما والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له، لكني أصوم وأفطر، وأصلي وأرقد، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني".

ولقد احتاط هؤلاء النفر لدينهم، وطلبوا الورع بدلالة هجران النوم عند الأول، وترك الإفطار عند الثاني، واعتزال النساء عند الثالث؛ غير أنَّ النبيَّ الكريم صحَّح هذا الفهم السقيم، وذكر أنه -وهو النبي الأسوة- يأتي ويترك على إيقاع صبغة الله تعالى،[1] فهو: يصلّي وينام، ويصوم ويفطر، ويتزوَّج النساء؛ ثم وضع عليه السلام القاعدة التي هي من قواعد الشرع الإسلامي الحنيف إلى يوم الدين، فقال: "من رغب عن سنَّتي فليس منِّي"(متفق عليه).

ومعلوم أنَّ الرهبانية انعزال، وهي ليست من أصول شريعة المصطفى عليه السلام، يقول الطباطبائي في تفسير قوله تعالى من سورة الحديد ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ﴾: "الرهبانية من الرهبة وهي الخشية، ويطلق عرفا على انقطاع الإنسان من الناس لعبادة الله خشية منه، و الابتداع إتيان ما لم يسبق إليه في دين أو سنة أو صنعة" قوله: "ما كتبناها عليهم" في معنى الجواب عن سؤال مقدَّر كأنه قيل: ما معنى ابتداعهم لها؟ فقيل: ما كتبناها عليهم"(الميزان في تفسير القرآن، تفسير سورة الحديد، نسخة رقمية).

ويصف كولن الرجلَ الذي يفهم التقوى والورع فهمًا سقيمًا بأنَّه مجرَّد حامل "شعارات شكلية جامدة" وصاحب "تصوفية متخدِّرة خالية من الروح"؛ أمَّا الذي يستوعب هذه الدلالة كما أمر الله تعالى فهو "مثل عالم كيميائي ينشئ في كلِّ آن تركيبة جديدة"، وهو صاحب "قلب ناضج عارف"(الموازين أو أضواء على الطريق، ص٢٨).

---

١ وانظر: محمد باباعمي: كتاب "صبغة الله"؛ سلسلة "ما بأنفسهم"، نشر مكتب الدراسات.

وبمثل هذا التعريف الشمولي الحركي الحضاري للورع يمكننا أن نفهم الكثير من تصرفات من ينسب إلى "البراديم كولن"، مِن مثل تأسيس المدارس، والتفوُّق في المعارف، وتنظيم الحوارات العالمية، والتفوق في الإبداع، وتنمية الصناعات والتجارات والثروات... كل ذلك جاء من قبل "الورع"، لا من باب "حبِّ الدنيا وهجران الآخرة"؛ فشتان بين هذا وذاك، حتى وإن كانت النتيجة الظاهرة متماثلة متشابهة!.

٢- المراقبة:

عرَّف كولن المراقبة بالبعد الشمولي الذي عرضناه من قبل، فقال: "ويمكن أن نعرِّف المراقبة أيضًا أنها: السعي الحثيث وراء مراد الله، والمرور بحياتنا وسلوكنا على نمط جاد في توحّد الداخل والخارج تحت نظارة الله سبحانه".

ثم وضع شرطا أساسيا لهذه المراقبة، فقال: "وهذا لا يتمُّ إلاّ بالاعتقاد بأنَّ الله مطّلع على جميع أحوال الإنسان، أي أنه سبحانه يسمع أقواله ويعلمها، ويعرف أطواره ويقدّرها، ويرى أعماله ويدوّنها. ويذكّرنا القرآن الكريم ببيانه المنوّر بهذه الحقيقة في قوله تعالى: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِن قُرْآنٍ وَلاَ تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلاَّ كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾(يونس:٦١)"(التلال الزمردية، ص١٠٠).

فالشمولية والعمق والسعة تتمثَّل في "توحُّد الداخل والخارج"؛ والجذور الحركية تظهر جلية في "السعي الحثيث"، و"المرور بحياتنا وسلوكنا"، و"على نمط جادٍّ"؛ أمَّا التوجه والعقبى فندركه من خلال عبارتي "وراء مراد الله" و"تحت نظارة الله"؛ ويظهر النظام الإسلامي الأخلاقي التربوي في وضع السلوك، بل والحياة كلها، تحت مجهر مراقبة الله تعالى

المطلقة، التي لا تغفل عن أيِّ صغيرة أو كبيرة، وهي شاهدة شهودا مطلقا على كلِّ عمل وإفاضة.

ولو أننا رسمنا خطَّ الفهم لمصطلح المراقبة، لكان خطًّا تصاعديا ديناميكيا حركيا، داعيا إلى التحرر والانطلاق، دافعا إلى الإبداع والانتصار؛ فالبون شاسع بين أن تراقب الله تعالى وأنت قابع في معبدك، ناء عن تدافع الحياة... وأن تراقبه وأنت تصنع أسباب الحضارة، وأسس التقدم، ومنطلقات النصرة والتمكين![1]

مِن هنا، يمكننا القول إنَّ بعض ما يفسِّر المقاييس العالية لمشاريع الخدمة، هو هذه المراقبة التي تتجاوز مراقبة المخلوق إلى مراقبة الخالق، وهذه المعية الربانية لمؤسِّسي هذه الصروح التي تعدُّ بالآلاف، وجميعها تسمو وتتفوق شكلا ومضمونا، جمالا ومحتوى... وإنَّ هذا الملحظ ليصنع معالم الحدِّ الفاصل بين "البراديم كولن" وغيره، بكلِّ ما تعنيه الكلمة.

٣- الدعاء:

عندما يتعلَّق الأمر بالوجدان، وبالعلاقة بالله تعالى، وبسبُل السعادة الدنيوية والأخروية، ينطلق الأستاذ كالصاروخ في صياغة الألفاظ والمصطلحات والمفاهيم، ثم يفجِّر بركان المعاني من أعماقه، فتتعالى الدلالات يسَّابق بعضها بعضا، لتسقيَ القلوبَ العطشى، وترويَ العقول الظمأى... ومن هذا القبيل[2]: الدعاء، والذكر، والضراعة، والتوسل...

ولنضرب مثلا واحدا بالدعاء الذي له في قاموس الأستاذ مكانة خاصَّة، تماما مثلما هو الحال في حياته، وفي دعوته، ولدى الشباب الذين ربَّاهم ونشَّأهم بعنايته... فإذا صحَّ أن يلقَّب الإمام الشعراوي رحمه الله تعالى

١ وانظر: من العزلة إلى المخالطة"، الفصل السابق من هذا البحث.

٢ وانظر: البكاء هما وهمة"، ضمن فصل أسباب الرشد وموانعه.

بـ"إمام الدعاة"، فقد صحَّ أنَّ يلقَّب الأستاذ كولن حفظه الله بـ"إمام الذكر والدعاء". ولقد أشرف الأستاذ على نشر كتاب بعنوان "القلوب الضارعة"، يحوي الأدعية المأثورة في القرآن الكريم، والسنة الشريفة، وتراث السلف والخلف، وكذا جملةً من أدعيته هو، وكتب في تقريظ الكتاب: "كم آمل أن يكون العُبَّاد والزُّهَّاد اليوم يولون الذكر عناية فائقة، ويتحرَّون سبل زيادتها، وزيادة ذكر الله تعالى. لكننا مهما ذكرنا الله كثيرًا، ومهما زدنا في عبادته، فلن نوفي حقَّه من الذكر".

ومن الصيغ التي عرَّف بها فتح الله الدعاءَ، نورد نماذج، منها:

– الدعاء "نداء وتضرُّع، وتوجُّه من الصغير إلى الكبير، ومن الأسفل إلى الأعلى، ولهفة من الأرض ومن سكَّان الأرض نحو ما وراء السماوات، وطلبٌ ورغبةٌ وطرحٌ لما في الصدور من آلام".

– "والدعاء باعتبارِ توجُّه العبد المدرِك لأحوال عجزه وفقره وقِصَر يده عن كفاية نفسه، إلى الرحيم الذي لا نهاية لرحمته، وعرضِ حاله عليه، وطلب الاستجابة منه، هو ضرورة لازمة لتوكيد إيمان العبد بربِّه، وثقته به، واعتماده عليه، وتوحيده".

– "والدعاء، مفتاح طلسميٌّ لخزائن الحقِّ اللانهائية، ومستندُ الفقراء والمساكين والحزانَى، وآمن ملجإٍ للمكتوين بِحَرّ ضرورات الحاجة"

– "الدعاء غذاء الروح. ويجب إمداد الروح بهذا الغذاء على الدوام"

– "الدعاء هو تخطِّي الأسباب الظاهرية بإعلان الاعتماد على قدرة الباري تعالى وإظهار الضعف البشري"

– "الدعاء أصفى مظهرٍ من مظاهر العبودية وأصدقُها في كلِّ حين،

لكونه لبَّ التوجه إلى الحقِّ تعالى بالطلب، وأفضلَ إعلان للعبودية"(ترانيم روح، التلال الزمردية، الموازين...).

نعم، قد لا تكون جميع هذه العبارات تعريفات حدِّية منطقية، لكنَّها مجتمعةً تفتح لنا أفق المعنى مرتبطا بإرادة الاستجابة؛ إذ ليس هدف الأستاذ من هذه التعاريف الترف الفكري، ولا التبجُّح النظري؛ وإنما هدفه الأساس هو دفع الناس إلى الدعاء، وقبل ذلك حمل نفسه على الدعاء، ولذا تفنَّن في وصف منافذ الدلالة عن الداعي والمدعو والدعاء:

فالداعي وُصِف بالصغير، والأسفل، والعبد، والفقير، والمسكين، والحزين، والمكتوي، والضعيف...

أمَّا المدعوُّ، فهو الكبير، والأعلى، وما وراء السماء، والرحيم، والربُّ، والباري...

والدعاء... هو النداء، والتوجُّه، والتضرُّع، واللهفة، والطلب، والرغبة، والضرورة لتوكيد الإيمان، والمفتاح الطلسميُّ، ومستنَد الفقراء، وآمن ملجإٍ، وغذاء الروح، ووسيلة لتخطي الأسباب الظاهرية، وأصفى مظهرٍ من مظاهر العبودية، ولبُّ التوجه إلى الحقِّ، وأفضل إعلان للعبودية...

يجمع بين هذه التعاريف جامعُ الشمولية والحركية وإرادة الفعل وإدارته، فليس الدعاء لمجرَّد الدعاء، وليس مظهرا من مظاهر السكون وهجران الحياة، بل هو مرتقى وسلَّم للمعالي والعظائم[1]؛ وليس أقوى دلالة على هذا من قوله تعالى في شأن موسى عليه السلام، وهو يدعو ربه: ﴿رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي، وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي، وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي، يَفْقَهُوا قَوْلِي، وَاجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي، هَارُونَ أَخِي، اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي، وَأَشْرِكْهُ فِي

١ ما أروع كتاب العلامة محمد الغزالي رحمه الله، في هذا الشأن، والذي عنوانه "فن الذكر والدعاء".

أَمْرِي...﴾، كلُّ هذا الدعاء والتبتل لله تعالى، من أجل ماذا؟ وما هو الطلب؟

هل هو النصرة على فرعون؟ أو التمكين في الأرض؟ هل قال: كي نُنصر وننتصر؟

كلا، وإنما "كي نسبحك كثيرا، ونذكرك كثيرا" ونعمل وفق مراقبتك ﴿إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيرًا﴾. فإذا ما تمَّ لنا هذا، وتيسَّر لنا التسبيح والتعظيم والتهليل، بل وجميع الدعاء، بكثرة، وكما يريد الله تعالى، فإنَّ النصر على فرعون سيصير نتيجة لا مقدِّمة، نهاية لا بداية، عارضا لا أصلا.

وما بين الحقِّ والحقِّ يغيب الخلق...

نحو موسوعة للمصطلحات والمفاهيم والتعريفات

إنَّ الرغبة في استكمال التصوُّر لمنظومة الدلالة عند كولن، ولعمق المفاهيم والمعاني في "البراديم كولن"، لتدفعنا إلى اقتراح مشروع موسوعيٍّ تكميليٍّ لمشروع "قاموس المفردات" الذي اقترحه علي جولاق؛ ولا ريب أنَّ هذا العمل لو تمَّ سيفتح بابا واسعا لفهم المنظومة في كامل مراحلها، وفي تتبع حياة الألفاظ من مرحلة الميلاد النظريِّ، إلى مرحلة النضج المعرفيِّ، ومنها إلى مرحلة التمثُّل الميدانيِّ... ثم -مرَّة أخرى- إلى إعادة الصقل والتنقيح... في حركة حلزونية تصاعدية لانهائية، تكتسب صفة الثبات باعتبار، وتمتاز بسمة التغير باعتبار.

وهذه المصطلحات والمفاهيم والتعريفات مدخل من مداخل نماذج كولن، التي نأمل أن تنير الدرب إلى استيعاب روح التجربة، وأن تسهم في إعادة تطبيقها في بيئات أخرى بعد إمرارها على غربال التكييف مرَّات ومرَّات.